الفصل الثالث عشر

لعزة النفس مكان

مهما تعددت أشكال الحرب وأساليبها وطقوسها فإنها في النهاية لا تعرف للرحمة سبيلاً، ولا للقوانين التزاماً وتنفيذاً نحو أي كائن ولأجل أي كائن، سواء كان ساكناً بدائرتها أو حتى وافداً إليها، السلطة والمصلحة المطلقة لأفرادها هي كل شيء وفوق أي شيء.

لم يكن النزوح ومشقته شفيعاً للقادمين من البعيد، استوقف رجال العصبة سيارته أول ما أقبلوا مشارف فوة من مدينة المكلا، وقاموا بتفتيشها ليتأخروا وينتظروا كما فعل المتمردون بهم.

وعندما تجاوزوهم، تنفسوا الصعداء، أخيراً شعروا بارتياح لبلوغهم غايتهم بسلام، لم يفكر شادي في أخذ استراحة أو الذهاب إلى مكان إلا للمستشفى لأجل ضياء، فقد بلغ الوهن وجمر الحمى من جسدها مبلغاً شديداً خلال رحلة النزوح لأجل الوصول إلى المكان الآمن، ورغم كل ما بها كانت ما تزال متنبهة لما حولها، حمدت الله أن وصلت مبتغاها وكل أهلها بخير حولها.

اتجه بها مباشرة إلى مستشفى (ابن سينا العام) الذي أرشده الناس إليه، وأدخلها بعد أن نقلها على كرسي متحرك إلى ردهة الطوارئ، ثم فحصتها طبيبة مناوبة، كانت المستشفى بكل باحتها وممراتها وأقسامها مكتظة بالجرحى وأهلهم من النازحين والمرضى من سكان المدينة،

تأمل الناس حوله، كلٌ بإصابات مختلفة من سكان عدن وغيرها من المحافظات الأخرى، يبدو أن الوضع آمن هنا على خلاف عدن؛ لكن الحرب تلقي بأثقالها على كاهلهم.

بينما ظلت مها تراقب الطبيبة التي كشفت إصابات ذراع ضياء قليلاً ثم طلبت منهما الانتظار خارج القسم لبرهة ريثما تتم عملها، امتثلا لأمرها والقلق يملأ نفسيهما، دقائق وأقبلت تستدعيهما وقالت:

-إصابتها ملتهبة قليلاً؛ لكنها ستتحسن بإذن الله، لذا هي في حاجة لتعالج تحت إشرافي لبعض الوقت.

سألها في قلق:

-وكم ستبقى هنا؟

-لا أدري، إلى أن أرى تحسناً إن شاء الله، جسدها متعب جداً.

-كما تريدين.

نُقلت بعدها لقسم الترقيد الجراحي المخصص للنساء، لم يكن مسموحاً له بالبقاء فترة طويلة إلا لأجل تسليم الممرضات الأدوية المطلوبة لأجلها، وحين لبى طلبهن أطل برأسه ليراها، كانت محاطة بساتر طبي ناحية الباب، وبآخر شبكي أحاط بالسرير كله لأجل أن تظل إصاباتها مكشوفة، استطاع أن يرى وجهها فقط من خلف الشباك، فوجدها نائمة باسترخاء ملامحها هادئاً رغم كل المصاعب التي مرت بها والمرض والإعياء اللذان ألما بها، ابتسم حين اطمأن قلبه، ثم خرج وعاد بعد دقائق وهو يحمل بطانية وشرشفاً لأجل أمه لتفترش الأرض

به وتستطيع النوم عليهما قربها، إذ أن الغرفة كلها ظلت مشغولة بثلاث مريضات أخريات ومرافقتهن، ولم يكن هناك سرير لمرافقة بل كرسي في إمكانها الجلوس عليه، كما جلب لهما بعض الفاكهة من محل خضار قرب أسوار المستشفى، واستأذنها ليغادر، فقالت له في قلق:

-إلى أين ستذهب يا ولدي؟ أنت متعب جداً.

رد بنفس مجهد:

-تعلمين أنه لا يمكنني البقاء هنا، سأرتاح قليلاً ثم سأذهب لأبحث عن سكن مناسب لنا.

-وأين ستستريح؟

ابتسم لها ابتسامة حانية وقبَّل رأسها، ثم قال:

-سأتدبر أمري يا أمي، لا تقلقي علي، المهم أن ترتاحي أنتِ أيضاً، وإن احتجتِ لشيء اتصلي بي.

هزت رأسها، وقالت في إشفاق:

-أرجوك، انتبه لنفسك.

-سأفعل يا أمي لا تقلقي.

ابتعد عنها متحاملاً على نفسه محاولاً الصمود أمامها بما تبقى من قوة في جسده، لم يكد يغادر القسم حتى شعر بالإعياء يكاد يقضي عليه تماماً وهو الذي ظل يقاومه أمداً لأجلهما، أخيراً حقق مراده وسكنت الراحة أعماقه، لذا لم يعد يشعر بطاقة الكفاح تجري في جسده، بدأ الخدر يستحوذ على أطرافه، وقواه تنهار بشكل كبير، لم يكن بباله أي مكان أو أية وجهة ليذهب

إليها ويرتاح فيها، خرج من المبنى وهو شبه غائب عن الوعي ليبحث له عن زاوية قرب أحد جدرانه لا يمر قربها أحد، اختار مكاناً رآه مناسباً يحيله عن المارة بالطريق الرئيسية داخل حرم المستشفى أشجار الزينة مغروسة في تربة بمساحة صغيرة مستطيلة الشكل ومحاطة بسياج قصير، كانت على مسافة منه، ومتفرقة مثيلاتها حول المبنى بانتظام، جلس ثم وضع عمامته على الأرض ليتخذها وسادة له، كل همه هو أن ينام فقط، نام بعمق كأنه لم يذق طعم النوم في حياته قط.

بعد فترة، لمعت في عينيه أضواء مشوشة بعيدة يؤطرها السواد، عيناه تحرقانه فظلتا شبه مغلقتين، أجفانه ثقيلة عجز عن رفعهما سريعاً، وأحدهم يهزه من كتفه، ويقول:

-أيها الشاب، استيقظ.

بصعوبة بالغة استطاع فتحهما، رأى رجلاً أكبر منه سناً يجلس قربه، بدا من زيه بأنه من حراس المستشفى، قال له في قلق:

-هل أنت بخير؟! منذ متى وأنت هنا؟ كيف دخلت؟ رأيتك على هذه الحالة بعد وقت العشاء، وها قد رُفع أذان الفجر ولم تستيقظ أبداً أو تتحرك ولو قليلاً فقلقت عليك.

انتبه بأنه لا زال نائماً على جنبه الأيمن كما استلقى أول مرة، ألقى ببصره على ما حوله، تبين له بأن الظلام لا يزال يطغى بسواده على الأرض، ومصابيح الإنارة بالطرق المؤدية للمستشفى ومصابيح المسجد والمطعم المتواضع داخل حرمها لا تزال مضاءة، اعتدل جالساً ورأسه لا

يزال ثقيلاً، وجسده زاد تصلباً من رقوده لساعات طويلة، وبرودة الليل تغلغلت في عظامه فزادت مفاصله وجعاً، انتبه بأنه لا يزال مبعثر المظهر؛ ملابسه متسخة ورائحة جسده منفرة، تذكر ملامح وجهه في الصباح حين طالعها بنظرة خاطفة غير مقصودة عبر مرآة سيارته، وجهه شاحب وشعره مبعثر ولحيته كثيفة، لم يهتم بمنظره في لحظة تعبه وقلقه على ضياء، لكن نظرات الحارس وتساؤلاته جعلته يستعيد ما كان، هو أمامه الآن كالمتشرد أو المتسول أو ربما المجنون الذي يتسكع طوال النهار بالشوارع باحثاً عن مجهول لا يعلمه إلا هو، لا يهتم بمظهره أبداً، ويقتات من أي فتات يجده، ثم يبحث أخيراً عن أي بقعة ليأوي إليها حتى يجدها فيلقي بجسده المتعفن فيها، لا بد أن الحارس ظنه كذلك، وبأنه مات بعد طوال تشرد حين ظل على حركة واحدة طوال الليل، فالذي سيدفعه للتفكير بأن الماثل أمامه هو خريجٌ من جامعة عدن، وبشهادة علمية كبيرة ودرجة وتخصص فريد؟ فما الفرق الآن بينه وبين كل من خطروا بباله؟

لا شيء يميزه في منظره هذا ليثبت مكانته، حتى طريقة تفكيره كانت مثلهم تماماً.

هو ذل الحرب الذي لبسه مرغماً فأنزله من مرتبته ومكانته أمام الغرباء المارين قربه، توقع أن يطرده فور عثوره عليه أو يفتعل شجاراً معه لانتهاكه حرمة المستشفى برقوده في مكان غير مناسب؛ لكن الله أنزل شيئاً من الرحمة في صدره وأسكنها في قلبه فتركه يكمل نومه حتى إذا طال رقوده داهمه القلق، فاقترب ليوقظه ويتأكد من سلامته.

حزن في أعماقه لحالته رغم أنه لم يبدِه أمامه، التقط عمامته وأسند يده إلى الجدار ليقف بمساعدته، ثم قال له:

-شكراً لإيقاظي، عناء الرحلة التي مررت بها أرهقتني فنمت دون وعي.

وقف الحارس وسأله في دهشة:

-أنت من نازحي عدن ؟

-نعم.

-ألك مريض بالمستشفى؟

-نعم.

-أعانك الله، هل من خدمة أسديها إليك؟

صمت للحظات مفكراً، فكره لا يزال مشوشاً لم يكن مستعداً بعد لأي شيء حتى يتعرف على المدينة أكثر، وبعدها يستطيع أن يقرر مالذي يتوجب عليه فعله فيها، قفز أول أمر خطر بباله إلى لسانه، فقال:

-هل في وسعي العثور على سكن مناسب هنا؟

فكر، ثم أجابه:

-لا أظن، كثير من الناس قدموا إلى المكلا ومن مختلف محافظات البلاد مع اشتداد الحرب، أعتقد بأن مهمتك ستكون عسيرة في العثور على سكن مستقل، الحل أمامك إما أن تختار الإقامة في فندق، أو اللجوء لمراكز الإيواء.

مال شادي برأسه حين أثقلته الحلول، كلها غير متاحة أمامه، ضياء لن تستطيع الانسجام مع وضعها الحالي في مراكز الإيواء المزدحمة بالنازحين من كل مكان، وأيضاً الفندق سيستنزف ما بقي من مال في جعبته، شكر الرجل ثم توجه إلى سيارته وهو يسير بخطوات واهنة، التقط بعض الملابس من حقيبته ليذهب ويستحم في حمام المسجد ويبدل مظهره السيئ؛ لكن تفكيره استوقفه، أخرج محفظته من جيب سترته ثم فتحها ليعد ما تبقى بها من نقود فوجدها لا تتعدى ثلاثة آلاف ريال، هُلع، إلى أين سيوصله هذا المبلغ الزهيد؟! لن يتم تكلفة علاج ضياء، ولن يوفر مسكناً لهم، ولا طعاماً مناسباً حتى إن قرر القنوط في حق نفسه، دارت الأرض به، فأسند يده إلى غطاء السيارة، واضطرب فكره أكثر مما هو مضطرب ومشوش ومتعب. من سيساعده وسينقذه في محنته هذه؟ من سيمنحه سكن مجاني أو سيمهله لحين تسلمه لراتب والده المتوفى والذي لن يستلمه إلا نهاية الشهر وهو لا يعرف أحداً بالمدينة ليساعده؟

لا يزال أمامه أسبوعان وربما المدة تطول في ظل الحرب ويتأخر في استلامه، هذا المال هو كل ما تبقى لهم كراتب شهري يستلمه بانتظام ليسير أمورهم بها، لم يمتلك بعد أي عمل يدر عليه دخلاً جيداً سوى أعمال يسيرة في بعض الورش حصل منها على مبالغ بسيطة لا تلبي حاجة فرد فكيف بأسرة؟ مالذي يجب عليه أن يفعله؟

دعا ربه أن ييسر أمره وأمر أهله، واتجه بعدها إلى المسجد وهو في دوامة القلق ليفرغ كل أدران الرحلة من جسده وإن ظل التعب والوهن لا يزالان يسريان في جسده، اغتسل وبدل

ملابسه وتطيب، وأدى صلواته التي فاتت عليه من دون قصد، ولما انتهى انتبه لهاتفه يرن، فأخرجه من جيبه ليجدها مكالمة من أمه، وقبلها مكالمات كثيرة فائتة منها، انتفض فزعاً، أسرع يرد عليها وهو يخرج من المسجد، فأجابته في خوف ولهفة قبل أن يرد:

-شادي! أين أنت يا ولدي؟

أجابها في قلق:

-لا أزال في المستشفى يا أمي، هل أنتِ بخير؟ هل ضياء بخير؟ هل حدث شيء؟!

هتفت بكلمات بعثرتها الدموع:

- بل هل أنت بخير؟ لِمَ لم تجب عن اتصالاتي؟ أين كنتُ؟ نحن بخير ولم يحدث شيء.

أدرك لحظتها سبب اضطرابها، فقال مهدئا:

-لا تخافي، أنا قادم إليكِ الآن.

أغلق الهاتف واتجه مباشرة إلى القسم وحين أقبل إليه وجدها عند باب الغرفة الرابعة واقفة تنتظر إطلالته، الغرفة التي ترقد بها ضياء، وما أن دخل ودنا منها حتى عانقته باكية وأخذت تلثمه وتقبله طويلاً، وهي تقول في خوف وقلق:

-أين كنت يا ولدي؟ أين كنت؟ بحثت عنك بعد أول اتصال ولم تجبني، اتصلتُ بك بعد ساعتين من مغادرتك إيانا، ومن وقتها لم أكف عنه، سألتُ كل من حولي عنك فلم يرك أحد، نزلت بنفسي أبحث عنك ولم أجدك، كنت قلقة عليك منذ أن تركتني، خشيت أن تمرض أو أن تفقد وعيك من شدة التعب بعد رحلتنا تلك وتسقط في أي مكان لا نعلمه

وأنت في تلك الحالة فنفقدك، حتى ضياء استيقظت وسألت عنك تظاهرت أمامها بأن تغطية شبكة الهاتف لم تتح لي الاتصال بك، وتارة أخبرها بأن تواجدك معنا غير مسموح به الآن، حاولت أن أخفي الأمر عنها، خشيت أن يداهمها القلق عليك، يكفيها ما بها، أجبني الآن، أين كنت؟ ماذا حدث معك؟

لم يشأ أن يخبرها عما حدث وعن وضعه المزري الذي كان به، قلبها المرهف قادها لحالته، لم يبعدها عنه تركها حتى تروي قلبها وتطفئ نار قلقها، فعاد يطمئنها قائلاً:

-كنت قريباً منكِ؛ لكن النوم أخذني بعيداً ولم أستيقظ على اتصالك رغم أن الهاتف ظل في جيب سترتي، آسف لما سببته لك من قلق، اطمئني، هأنذا قربك.

أرسلته وتأملت وجهه، لا تزال مشاق كل الظروف التي مرت بهم مرتسمة على وجهه، فمسحت دموعها وقالت:

-ابقى قرب بوابة المستشفى الرئيسية ولا تبتعد عنها، حتى إذا لم أتمكن من الاتصال بك وجدتك بمكانك.

-حاضر.

-هل تناولت شيئاً؟

نسي تماماً بأنه لم يذق أي طعام منذ الصباح، القلق على كل شيء ومن المجهول أفقده التركيز على نفسه كثيراً، فقال لها:

-الآن سأشتري لنفسي شيئاً، اطمئني.

فتحت عيناها في صدمة، وقالت حازمة:

-لم تأكل منذ الصباح؟ لهذا وجهك لا يزال شاحباً ومصفراً هكذا، سلَّم على ضياء ودعنا نذهب سوياً، سأشتري لك طعاماً بنفسي.

أمسكت بيده لتدخله الغرفة، فقال لها:

-لا تـ...

قاطعته:

-لا تناقشني.

صمت تلبية لأمرها ودخل الغرفة فوجد ضياء لا تزال مستلقية على سريرها وقد أزيلت السواتر الطبية عنها وارتدت ثوباً واسعاً غطى جسدها وإصاباتها، ظهر الضماد على ذراعها وجهها، ابتسمت له، فابتسم لها حين رآها بخير، وسلم عليها ثم قال:

-كيف حالك الآن؟

-بخير والحمد لله، لقد أخبرتني الطبيبة قبل قليل بأن في إمكاني المغادرة بعد أربعة أيام.

ابتسمت مها ،وقالت في سرور:

-صحيح أن الإصابة ملتهبة قليلاً، لكنها استجابة جسد ضياء للعلاج كان كبيراً، ستحسن خلالها حسب ما ذكرت الطبيبة، وقالت بأن تعاملي مع الحروق كان سليماً، وهذا سيساعد مع العلاج التي ستتابعه هنا على استعادة عافيتها سريعاً، ثم سأتابعه بنفسي بعد خروجنا إن شاء الله.

-أربعة أيام!! يتوجب علي الآن تدبر كل شيء سريعاً، المدة قصيرة جداً، يا إلهي ساعدني.

تمتم شادي بذلك في نفسه، وشرد بفكره تماماً عنهما والقلق يداهمه، لاحظتا ذلك، فسألته ضياء:

-هل هناك مشكلة يا أخي؟

انتبه وقال سريعاً:

-لا، أنا سعيد لما قلته، أتمنى لك الشفاء العاجل يا أختي.

أدركت مها ما جال في خاطر ابنها، فقالت لضياء:

-سأخرج قليلاً مع شادي لأشتري شيئاً، وأعود إليكِ، لن أتأخر.

أحست بأنهما يخفيان أمراً، فهزت رأسها وسمحت لهما، ثم خرجا من الغرفة، فقالت مها له في حزم:

-أولاً يجب أن تأكل ولن أتركك حتى أراك تفعل ذلك.

قال في توتر:

-أمي، لن أشتري شيئاً كثيرا، لم يعد لدي مال كاف، ونحن في حاجة للدواء لأجل علاج ضياء.

-قل ما تشاء، المهم أن تأكل ما سأختاره لك.

لم يستطع منعها، اشترت له فاكهة وخبزاً وبعض الدجاج من مطعم المستشفى، ازداد توتراً، وهمس لها قائلاً:

-أمي، هذا كثير، لم يتبقَ معي إلا ثلاثة آلاف فقط.

قالت في حزم أكثر وبنبرة همس مثله:

-هل تظن بأني لا أفكر معك أيضاً؟ سنفكر في القادم لاحقاً، المهم أنت الآن.

رد في حيرة:

-كيف؟

- كُلْ، بعدها أوضح لك مرادي.

أخذ ما طلبته وخرجا، عاد للمكان الذي نام فيه وجلست قربه، فقال لها في قلق زائد:

-أمي، هلا أخبرتني كيف ستتدبرين الأمر ونحن لا نعرف أحداً هنا؟ أنقذيني من حيرتي فما عاد في صبر.

فرشت له أطباق الطعام على الأرض قربهما ثم قالت له في رفق:

-تناول طعامك وبعدها أخبرك.

-لن أستطيع تناول أي شيء، أشعر بأني سأغص به من شدة قلقي وحيرتي.

-حسناً، حملتُ بعض مجوهراتي معي، بعها في الصباح وابدأ مهمتك في البحث عن سكن لنا.

بدا الهم زائد على قلبه، وهو يقول لها:

-أحسستُ أنك تنوين فعل ذلك، لكني لا أرغب حقاً في أن تقدمي عليه، سأحاول أن أجد طريقة أخرى.

ربتت على كتفه، وقالت:

-بني، إن لم نستخدم هذا المال وقت حاجتنا فما فائدته؟ أعلم أنك لو كنت في عدن لبحثت عن ألف وسيلة ووسيلة لأجل الحصول على المال ولن أمنعك لأنك ستكون في مدينتك التي آلفتها، أما هنا فأنت لا تعلم شيئا ولا تعرف أحداً، لذا بعْ ما يمكنك به تيسير أمورنا ولأجل ضياء.

شعر بأن كلماتها قد غلبته حين نفذت الحلول في رأسه، فقبله مرغما، واقترب منها وقبَّل رأسها، وهو يقول في حزن:

-أسأل الله أن يعينني على تعويضك عما فقدته يا أمي.

ابتسمت وقالت:

-بل إن الله سيعوضني طالما إنكما قربي وإلى جانبي، حفظك الله يا ولدي أنت وأختك.

أبعد حزنه وبادلها الابتسامة، ثم تناول طعامه وظلت إلى جواره ترقبه، ولما فرغ اتجه لسيارته ليستريح بعض الوقت فيها، بينما عادت هي إلى قسم الترقيد.

ومع شروق الشمس بدء رحلة بحثه، سأل بعض المتواجدين بالمستشفى، وعرف منهم أسماء بعض المؤجرين للشقق والذين يستطيع سؤالهم عن سكن مناسب، فقال أحد النازحين له:

-الأفضل أن تذهب إلى (مؤسسة الرُبا)، صاحبها السيد (عبد الكريم) رجلٌ كريم جداً، وواثق بأنه سيساعدك في ظرفك الاستثنائي هذا.

بدا البِشر على وجهه وهو يقول في سعادة:

-حقاً؟!

هز رأسه وأجابه:

-أجل، إضافة إلى ذلك فهو يمنح النازحين شققاً دون مقابل لمدة شهر ويتعامل معهم كلٌ حسب وضعه.

ابتسم وقال:

-أسأل الله أن أجد شقة لديه، ليس لدي المال الكافي للإيجار في الوقت الحالي.

قال في حزم:

-المهم أن تقابله شخصياً وتخبره بوضعك، وإن لم تجد سكناً لديه، فلابد أن يساعدك في العثور على سكن عند غيره.

صافحه بحرارة وهو يقول ممتناً:

- شكراً لك، جزاك الله خيراً، سأنفذ ما أوصيتني به، أفدني بعنوان المؤسسة رجاء.

أفاده بالعنوان، ثم خرج من المستشفى، قرر ترك سيارته لحين تدبره لأمر المال، واستقل الحافلة العامة بدلاً منها، حركة المواصلات كانت دؤوبة منذ إطلالة الصباح، الشوارع مكتظة بأجساد البشر، حين صعد إليها التقى بعدد من سكان مدينته وتبادل معهم الأحاديث، واستمع إلى قصص نزوحهم المؤلمة ورحلتهم إلى هنا، ثم ظروف معيشتهم الحالية، المدينة تعاني وطأة الحرب وسطوة مجرمين آخرين لم يرحموا أهلها أبداً واستحوذوا على

خيراتها لهم، ومع ذلك صارت ملجأ للفارين من الحرب في المناطق التي اتخذت من السلاح اليد الضاربة لفرض سلطتها على البشر والحجر، المكلا بمعاناتها أيضاً لن تحتمل اكتظاظها باللاجئين إليها من كل مكان، لكن لا حلول متوفرة لدى أحدهم.

ليس أمامهم إلا الدعاء لتنجلي هذه الغمة في القريب العاجل.

بعد ثلث ساعة، وصل إلى منطقة (أربعين شقة) حيث العمارة التي بها المؤسسة، استغرب حين قرأ لافتتها العريضة تحمل اسم فتاة، فكر ربما يكون اسم ابنته أو قريبة له ويحبها كثيراً وتيمناً بها سمى المؤسسة باسمها، دخل وسأل موظف الاستقبال عنه، فقال له معتذراً:

-آسف، إنه غير موجود الآن؛ لكن في إمكانك مقابلة نائبه.

-سأنتظره، متى سيأتي؟

هز رأسه وقال:

-لقد أصيب قبل أمس بطلق ناري وهو طريح الفراش في منزله، لا أدري حقاً متى سيعود إلى عمله.

رفع حاجبيه وقال في صدمة:

-أصيب بطلق ناري!!

عقد الموظف حاجبيه، وقال في ضيق:

-لا تؤخرني عن عملي رجاءً، إن كنت تريد شيئاً آخر فتفضل.

شعر بخيبة ألم كبيرة وبأن الحظ لم يحالفه، إذ أنه تشجع من حديث الرجل على مقابلته هو وشرح وضعه له، فهل سيساعده نائبه مثله؟ وحتى إن قرر الوصول إليه وزيارته في منزله فلن يكون من اللائق أن يشكي له همه وهو في جريح طريح الفراش، والانتظار طويلاً ليس في صالحه، نظر للموظف وقال:

-حسناً، أخبر نائبه بأني أود مقابلته.

نهض الموظف من مكانه ودخل المكتب ليستأذن منه، وخرج بعد لحظات ليسمح له بالدخول، دخل ورأى سهيلاً جالساً خلف مكتبه، سلم عليه، فرد عليه مرحباً في ابتسامة، ثم سمح له بالجلوس، وسأله:

-ما هو طلبك يا سيد؟

توتر قليلاً وارتبك، لم يكن مستعداُ لمقابلة غير الرجل الذي شعر بارتياح شديد له من مجرد حديث، لكنه قال:

-إني أبحث عن شقة لي ولأهلي، أنا قادم من عدن ولا أعرف أحداً هنا، وسمعت بأنكم تمنحون النازحين بعض الشقق كمكان إقامة دون مقابل لمدة شهر.

تنهد سهيل ثم قال:

- هذا صحيح؛ لكن الشقق كلها صارت مشغولة الآن، ولم يعد لدينا أي مكان شاغر، ولو أنك أتيت أمس لكنت وجدت مكاناً.

زادت صدمته، لقد وصل مساء الأمس فقط، لو أنه تحامل على نفسه وبدأ سؤاله وبحثه واتجه إلى هنا لم تكن الفرصة لتضيع من بين يديه، صمت متجهماً، فقال له سهيل:

-مراكز الإيواء مفتوحة يمكنك الذهاب إليها.

نكس رأسه، وقال في ألم:

-لا أستطيع، ظرفنا الحالي هو ما يجبرني على البحث عن سكن منعزل، أختي مصابة بحروق بليغة ولن يكون وضعها مناسب في مكانٍ مزدحم، هي الآن في المستشفى وأنا أبحث لأجلها.

رد عليه في أسف:

-آسف لأجلك، كنتُ أتمنى مساعدتك.

رفع رأسه، وقال له:

-حسناً، هل في إمكانك إفادتي باسم أحد المؤجرين الذين يستطيعون إمهالي بعض الوقت حتى أستطيع تدبر أمر الإيجار؟

رد عليه بسرعة وحزم:

-الأمر ليس متعلقاً بالاسم بقدر ما هو متعلق بالاتفاق بينكما، سأفيدك بعناوين مكاتبهم حتى تسألهم بنفسك وتتفق مع أحدهم إن شاء الله.

أدرك شادي من نبرة حديثه وسرعة كلماته بأنه لا يريد مساعدته ويريده أن ينصرف سريعاً، تجاهل ذلك وهو يقول في شيء من الرجاء:

-هل في إمكانك أن تتحدث إلى من تثق به؟ ربما تستطيع اقناع أحدهم لمساعدتي.

هز رأسه، وقال في نبرة ضيق:

-أعتذر إليك، لا أستطيع أن أجبر أحداً على قبول طلبك، افعل هذا بنفسك.

أصابته نوبة يأس، لقد فشل في أول خطوة له، وربما يلحقها فشل آخر، أبعد بصره عنه وتنهد بعمق وهو يتمتم:

-خيبة أمل.

ازداد الضيق على وجه سهيل، فقال بعصبية حين لم يسمع كلماته:

-عفواً!!

بدا شارداً تلك اللحظة، عيناه ساهمتان نحو الأرض، تذكر العقد والقرطين اللذين أعطتهما إياه أمه، لم يرغب في بيعهما؛ لكنه قد يجبر في أية لحظة إن طال بحثه اليوم ولم يجد حتى من يساعده أو يستدين منه ولو لفترة وجيزة، هز رأسه لينفض الإحباط عن فكره وهو يقول في نفسه:

-لا زلت في أول يوم، لا تزال أمامي فرصة، لا يجب أن أيأس من الآن.

استيقظ من شروده على صوت سهيل وهو يقول في شيء من الحدة:

-ما الأمر؟!

اعتذر وقال:

-لا شيء سيدي، أعطني الورقة.

سلمه الورقة، حملها وشكره وأعماقه مهمومة وغادر المكتب.

توجه بعدها إلى بقية المكاتب، قضى نهاره كله متنقلاً من مكتب إلى آخر، لم يحظَ بالقبول، حتى وصل إلى وسط المدينة قرب منطقة (باجعمان) كانت آخر محطة له ومعها انتهت أوقات الدوام، لم يتبقَ من الألف ريال إلا خمسمئة ولم يصل لنتيجة، جر قدميه جراً إلى محل مجوهرات وباع العقد متألماً.

خوف وقلق من المستقبل الغامض كان متغلغلاً في أعماقه، فقد بيته وهو عاطل عن العمل وليس له إلا راتب أبيه الذي لا يعلم الآن متى سيصله، حتى إذا انتهت الحرب لن يكون في مقدوره العودة إلى عدن إلا لبيت إيجار آخر، هو نفس التحدي الذي يعيشه الآن، هل سيضطر لبيع مجوهرات والدته قطعة تلو الأخرى لعجزه هذا؟

أضنى الهم قلبه، ثم ركب الحافلة وقفل عائداً إلى المستشفى.

في اليوم التالي، واصل بحثه وأكمل بقية المكاتب التي لم يصلها بوسط المدينة، والنتيجة لم تختلف عن سابقتها، لم يجد أحداً يساعده أو حتى يمهله ريثما يصل راتب أبيه، أغلقت الأبواب دونه، وحطم اليأس كيانه ، ضياء ستغادر المستشفى بعد يومين ولم يصل لشيء، لم يخفِ الأمر عن أمه وهي من تبادره بالسؤال عما يجري معه لتقاسمه همه وتحمل معه عبئ ما يتحمله بعيداً عن ضياء، فأخبرها بتفاصيل كل ما جرى معه، دعت ربها أمامه أن ييسر أمرهم لأجل ضياء، كانت تقرأ أحزانه وخيبات مساعيه في عينيه قبل أن يحادثها، وتقرأ اليأس الكبير الذي احتل قلبه، قالت له لتهدأ روع قلبه:

-عليك بالدعاء مع السعي يا ولدي، أنا واثقة بأنه لن يضيعنا وسنجد مخرجاً بإذن الله.

قال في رجاء:

-يا رب.

خرج بعدها إلى باحة المستشفى وكان الوقت عصراً، واتجه إلى المطعم ليحتسي كوباً من الشاي، وجلس قرب طاولة مفكراً في أمره وهو يتأمل المرضى ومرافقيهم والزوار الوافدين إليها عبر بوابتها والسيارات الداخلة فقد كان الجلوس المخصص بالمطعم أمام مبناه الرئيسي كفناء واسع يحده سور بنصف قامته وسقفه من حديد الشنيكو محمول على أعمدة مثبتة وتدلى منها مراوح للتهوية، انتبه لأحدهم يقول له:

-أنت شادي خالد عبد الرحمن؟

التفت للرجل، بدا غريباً لم يعرفه، لكنه لفظ اسمه كاملاً فاستغرب، قال له:

-نعم أنا هو، من أنت؟

ابتسم الرجل وقال:

-أتأذن لي في الجلوس قربك.

رحب به، فجلس قربه وهو يقول:

-الحمد لله أني وجدتك، أنا موظف بمؤسسة الرُبا التي قدمت إليها صباح الأمس، السيد سهيل يطلب حضورك إلى المكتب.

رد في شيء من الانزعاج:

-ولكنه اعتذر عن مساعدتي.

قال له محاولاً تبديد انزعاجه:

-لا تلمه سيدي، فهو مجرد نائب ويعمل بما يستطيع وقد أخبر السيد عبد الكريم بوضعك، فهو دائم السؤال عن سير العمل رغم حالته، ويبدو أنه سيتمكن من مساعدتك لذا فقد طلب إليَّ البحث عنك، وسيخبرك بما يريد.

علت وجهه ابتسامة حين ذكر اسم (عبد الكريم) أمامه مرة أخرى، فقال:

-حسناً متى؟

-بعد صلاة العشاء إذا لم يكن هناك ما يشغلك.

-سآتي بإذن الله.

وفي الموعد، عاد شادي للمؤسسة، فوجدها خالية من موظفيها إلا من سهيل الذي كان جالساً ينتظره، نهض على الفور ورحب به في سرعة، وهو يقول:

-أخبرت السيد عبد الكريم بما أخبرتني به وطلب أن يلقاك، دعنا نذهب إليه ولنكمل حديثنا في الطريق.

سأله في حيرة:

-لكن كيف تمكنت من معرفتي والوصول إليّ وأنت لم تعرف حتى اسمي؟

ابتسم له وقال:

-من حالة أختك التي شرحتها لي، بعد مغادرتك بثلاث ساعات تقريباً اتصلت بالمدير وكنا نتشاور في أمور العمل حتى ذكرتك وأخبره بما تم في لقائنا، فعاتبني لأني لم أستشره في أمرك، حسب علمي بأن معظم النازحين متواجدين في مستشفى (ابن سينا)، لذا طلبت من أحد الموظفين أن يسأل عنك حتى وصل إليك.

فهم شادي الأمر، فقال سهيل وهو يشير له:

-لنكمل حديثنا في الطريق.

امتثل لأمره، ركبا السيارة، فقال شادي:

-هل هو بخير الآن؟ سمعت بأنه قد أصيب بطلق ناري.

عقد سهيل حاجبيه وقال في ضيق:

-الأشرار كانوا يحاولون قتله، بل إنهم يحاولون قتل كل من يساعد الناس.

رد غاضباً:

-حسبي الله ونعم الوكيل، أكان يقاتلهم؟

هز رأسه:

-أبداً، ولم يحمل سلاحا في حياته ومع ذلك...

لم يكمل عبارته، فشعر شادي بالألم لأجله، فقال:

-أسأل الله أن ينصره ويحفظه، كيف حاله الآن؟ هل حالته تسمح له بالحديث؟ أرجو ألا أثقل عليه بحديثي عن وضعي.

ابتسم وقال له:

-بالعكس، إنه يشعر بالسعادة حين يستطيع مساعدة أحد وانتشاله من مأزق، إنه رجل فريد ومميز رغم حالته وما مر به، وأعتذر إن كنتُ عاملتك بجفاء في لقائنا الأول، ضغوط العمل ولا شيء غيرها.

ابتسم وبدا متفائلاً مع كلماته، فقال:

-لا عليك سيدي.

ولما وصلا للمنزل الكبير، كان من فتح الباب لهما هو طارق، رحب بسهيل؛ لكنه حين رأى شادي خلفه بدا الضيق على وجهه واكتفى بترحيبه الأول، ثم قال:

-والدي في غرفة الاستقبال ينتظركما.

قادهما إلى الغرفة، فوجداه راقداً على سرير، ابتسم لهما ورحب بهما، ثم أراد الجلوس فأسرع طارق يقترب منه ليساعده.

كما لامس الارتياح قلبه لمجرد حديث عنه تأكد له من ملامحه صدق إحساسه بمجرد أن رآه لأول وهلة رغم الإرهاق المرتسم عليه، الوقار والابتسامة السمحة تضيئان وجهه، شعر بأنه يقابل والده لم يدر لم انتابه ذلك الشعور رغم أنه لا يشبهه، صافحه بسعادة وابتسامة، وقال له:

-أرجو أن تكون بخير يا سيدي، حفظك الله من كل سوء، أتمنى ألا أثقل عليك.

هز عبد الكريم رأسه وقال:

-لا تقلق يا ولدي أنا بخير وإلا ما كنت سأقابلك، تفضلا.

وجلسا وهو لا يزال يلاحظ طارقاً يرمقه بنظراته المتضايقة، أشار له عبد الكريم بأن يحضر شيئاً لضيفيه فخرج امتثالا لأمره، ثم التفت إليهما وقال لشادي:

-لقد أخبرني سهيل بما حدث بينكما صباح الأمس، ومع ذلك فأنا أود سماع قصتك منك يا بني.

قال دهشاً:

- قصتي!! قصتي طويلة الشرح يا سيدي، أخشى أن أرهقك بها.

شجعه قائلاً:

-كلي أذن مصغية لك.

تنهد بعمق ثم مضى يسرد قصة نزوحه كلها بألم حاول إخفاءه وإن كان حاول اختصارها، بدا الألم على وجه عبد الكريم وهو يستمع إليها، ولما انتهى قال له:

-كل الخلافات الهوجاء بين سادة الحروب لا تنصب إلا على رؤوس الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة، فيحاولون التأقلم معها ولا شيء غير ذلك، أعانك الله يا ولدي وعوضك عما فقدت.

-آمين.

-إني أقدر ظرفك، وقد حاولت بالفعل التواصل مع عدد من أصحاب العقارات ومن أعرفهم؛ لكني لم أوفق مع أحدهم للأسف، ففكرت في حل آخر أتمنى أن يكون مناسباً.

هتف في لهفة:

- وما هو؟

في تلك اللحظة دخل طارق وقدم الشاي لهما وبدأ بشادي وحين انحنى ليناوله قال له هامساً في ضيق:

-إياك أن تثقل على أبي.

في لحظة اندماجه ولهفته لما سيقوله عبد الكريم لم يركز فيما قاله طارق، شعر بأنه أبعده عن واقعه موقتاً، بينما تابع عبد الكريم:

-كان لدى أهلي عمارة قديمة قريبة من العمارات التي بنيتها بـ(حي السلام)؛ لكنه هُجر منذ أن تركوه واشتريته من ورثته، وكنت أعتزم هدمها وبناء عمارة جديدة مكانها، إن به شقة صالحة للإقامة وتحتاج إلى بعض الإصلاحات والصيانة فقط.

تهلل وجهه فرحاً، وهو يقول:

-حقا سيدي!

فهز رأسه، وقال في انزعاج:

-ولكني لم أكن أرغب في منحها لأحد، فهي لا تليق كمسكن وبحاجة إلى صيانة - كما قلت لك - وعمَّالي كلهم مشغولون حالياً بأعمال أخرى وإلا كنت جعلتهم يقومون بذلك، أنا نفسي لم أحب الإقامة فيها، فكيف سأمنحها لغيري؟

فابتسم وهو يقول:

– سيدي، في وسعي إصلاح ما يمكن إصلاحه، فأنا مسؤولٌ عن منزلي وأستطيع فعل ذلك.

– لكن...

ازداد الضيق على وجه طارق وأدرك بأنه لم يعي ما قاله له أو ربما تجاهله وظل منسجماً في حديثه، فانصرف بعد قدم الشاي لسهيل، بينما تابع شادي:

– إن سمحت لي، سأكون ممتناً لك طول عمري.

بدا الحزن على وجهه، فهو لم يكن يريد أن يفكر فيه على الإطلاق، فقال:

–ما هي مهنتك يا ولدي؟ تبدو لي شاباً مثقفاً.

–أنا خريج هندسة ميكانيكية، لم أزاول عملاً بعد، وكنتُ سألتحق بالعمل في الجامعة لولا الحرب.

تنهد تنهيدة عميقة، كأنما كان الهم الذي على صدر شادي قد جثم على صدره هو، فقال له حين أحس ما بصدره:

– أرجوك سيدي، ستكون أمورنا على خير ما يرام طالما أن المنزل صالح للسكن، اسمح لي بإصلاح ما يلزم.

فهز رأسه مؤيداً رغم عدم اقتناعه، وقال:

– حفظك الله يا ولدي.

ثم التفت لسهيل وقال له:

–أتم العقد مع شادي، ثم خذه صباح الغد إلى الشقة، وساعده بما يلزم لأجل الصيانة.

هز سهيل رأسه، وشكره شادي وصافحه بحرارة وقوة وهو يشعر بأن كلمات الشكر وتلك المصافحة لا تكفي، ودموع الفرح تنهمر من عينيه أن نجح في مسعاه أخيراً حتى يتهيأ للاستقرار بعد تلك المعاناة، ابتسم عبد الكريم حين رأى سعادته ودعا له بالتوفيق.

وأتت البشارة مها، فرحت كما فرح، وحمدا ربهما على ذلك، وفي الصباح، أتم العقد وقاده سهيل إلى الشقة التي كانت بعمارة قديمة، وبها طابقان، فاختار الإقامة في الدور الثاني إذ أن الدور الأول كانت تلزمه صيانة أكثر، فقام بتنظيفه وترتيبه وإصلاح نوافذه وبعض توصيلات تزويد المياه إليه، لحسن حظه كانت الكهرباء تعمل به أوقفت خلال فترة هجرة القاطنين منه.

و خلال اليومين، يتفقد أهله صباحاً ليعود للمنزل مساءً ويجهزه بما قدمه إليه سهيل من بعض أدوات كالحصيرة والفرش وأدوات للطبخ وغيرها، وتعرف على بعض الشباب النازحين الساكنين بالحي والذين سيكونون جيرانه وساعدوه عن طيب خاطر في مهمته لتصبح الشقة في أبهى حلة.

*****